

الحوار في خدمة السلم والإنسانية

د.الحاج دحمان

جامعة كولمار، الألزاس العليا، فرنسا

ترجمة: د.راجعي مصطفى، أستاذ علم الاجتماع بكلية العلوم الاجتماعية، جامعة مستغانم، الجزائر

ويضمن لكل فرد من خلال التسامح والحرية والمسؤولية حياة هنيئة ومستقرة... باختصار حياة إنسانية.

انطلاقاً من هذا المبدأ يمكن القول أن الإسلام كغيره من الأديان يدعو إلى الالتقاء حول مبدأ الإنسانية وليس العكس. يجب الإشارة إلى الآية هنا لا تتوجه بالخطاب إلى المسلمين فقط أو المؤمنين ولكن للبشر في عمومهم. نجد في القرآن غالباً "يا أيها المؤمنون، المسلمون" ولكن في هذه الآية التي اشرنا إليها تخاطب البشر عامة. وكأن الآية تقول للمسلمين: في البشرية كل الناس أخوة. والإسلام مثله مثل الأديان التوحيدية يدعو إلى حياة ملؤها الحب والتسامح والسلم وهو يؤكد على ما يجمع كل الأديان أي التفاهم بين البشر بدون تمييز. جاء في سورة الشورى الآية 13 أن الدين عند الله واحد "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه"

ومن جهة أخرى، فإن الإسلام يعتبر كل الأنبياء إخوة بالنظر لرسالتهم المشتركة. هذا الاعتراف هو سبب ثاني للإخوة بين بني الإنسان جاء في الآية 136 من سورة البقرة.. "قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون".

كما أن الإسلام يضع الإنسان مركز كل اهتمام ويعطيه كل الحرية في المعتقد وحرية الاختيار. ففي الآية 256 من سورة البقرة جاء "لا إكراه في الدين" وفي الآية 99 من سورة يونس جاء "أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين". هذه الآية تتوجه للناس الذين لا دين لهم. من حقهم عدم الإيمان واحترامهم أمر يجب أتباعه. يعترف القرآن بحق المرء في اختيار دينه وإيمانه. لما عاد النبي إلى مكة تلا عليهم "لكم دينكم ولي دين" (سورة الكافرون). هذا ما يسمح لنا بالقول أن اختلاف وجهة النظر لا ينبغي أن تدفع بالناس إلى التمزق وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان" (سورة المائدة، الآية 2). على البشر أن يتعاونوا للقضاء على الظلم والفقر والإقصاء والتمييز. وعكس ذلك هو غريب عن روح الإسلام وعن روح كل دين.

العولمة ورديفاها تكنولوجيا المعلومات والتواصل والديمقراطية الإعلامية حولت العالم إلى قرية وسمحت لنا بمعرفة كل شيء عن كل ما يحدث في حينه. ويومياً أخبار متنوعة عن وقائع متعددة تقدم لمستهلكي المعلومات، وتأتي في مقدمة هذه الأخبار تلك الأخبار المتعلقة بأحداث عنيفة مربوطة بالدين، ومن خلال كل هذا نشهد عودة النقاش حول مكانة الدين وتلك المقولة الدائبة الصيت لاندري مارلو "القرن الواحد وعشرون سيكون أسطورياً أو لا يكون"⁽¹⁾

العولمة تفترض التعايش. ولكن هل هذا هو الواقع؟ الانتشار الواسع للعنف، الحرب والفظاعات المنسوبة غالباً للدين يظهر أنها فاجأت الجميع، فاستخدام الدين بات معروفاً للجميع. في هذا السياق وبمناسبة كل حادثة عنيفة تقع نسمع أصواتاً تنادي المسلمين بالتنديد والاستنكار. بمجرد التفكير في الأمر فهو يعتبر إدانة في حد ذاته. البعض الآخر يلقي باللوم على الإسلام ويتهمه بالعنف وبعد التسامح وتقبل الاختلاف. رغم أن الشواهد عديدة من مصادر الإسلام تنفي ذلك. العودة إلى أسس التعايش الذي هو من صميم الإسلام هو مسعى يصب لصالح تعزيز الأمن والسلام في المجتمع الإنساني. من وجهة نظر تاريخية، كيف نعيد رسم بناء السلم والحوار الذي دافع عنه الإسلام طويلاً؟ وكيف نصف دعاة وفاعلي الحوار والعيش المشترك؟

هل هناك في الإسلام مؤشرات على العيش المشترك ؟

للإجابة على هذا السؤال نسأل القرآن الكريم ثم السيرة النبوية ثم نستشهد ببعض الشخصيات التاريخية التي جعلت من حوار الديانات قضيتها الأساسية وغايتها المنشودة.

القرآن والحوار:

يعطي الإسلام أهمية غير مبالغ فيها للوفاق بين البشر بغض النظر عن دينهم. فهو يدعو الإنسان إلى التعاون والتضامن مع أخيه الإنسان. هناك عدة سور تدعو إلى هذا الأمر والسورة الأكثر دلالة هي سورة الحجرات والآية 23 منها تحديداً "لقد خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا". التعارف يسمح بالحوار والتعاون ويسهل قيام مجتمع متوازن

الدين هورباط بين الرجال والنساء ويربط الجميع بالله. نبي الإسلام قال "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه". في الإسلام لا يجب فقط الإيمان بالله الواحد والمشتراك ولا التمييز بين الأنبياء ولكن كذلك ينبغي احترام دور العبادة. فكل دور العبادة كلها ينبغي أن تكون موضع احترام جاء في القرآن "و لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا". بعبارة أخرى فان اسم الله يعظم في دور العبادة اليهودية والكنائس والمساجد. إن تعظيم دور العبادة هو تعظيم لله الواحد.

من جهة أخرى، الإسلام يدعو إلى التبادل والضيافة بين المؤمنين "اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم (من سورة المائدة) وأخيرا، يأمر القرآن بالعدل والإحسان" لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم" (الاية 8 من سورة الممتحنة)

نبي الاسلام والحوار

وتظهر السيرة النبوية علامات على الحياة المشتركة مع أديان أخرى. لقد أمضى النبي لما جاء الى المدينة وثيقة (دستور المدينة) مع اليهود وتبادل معهم الهدايا. كما أمر المسلمين أن يصوموا في يوم عاشوراء وكان عيداً يهودياً (يوم النجاة Youm Kippour) كان الشعب اليهودي يحتفلون به شكراً لله على أن نجا موسى وشعبه من فرعون. ولما عامل المكيون صحابة الرسول معاملة سيئة وقمعية طلب منهم النبي التوجه الى الحبشة (اثيوبيا الحالية) لطلب اللجوء حيث قال لهم "لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق".

الإسلام بابه التسامح والتعاون واحترام الأديان كلها. الإمام ابن باديس (1889-1940) الشخصية الإصلاحية البارزة صرح انه يزرع الحب على أساس المساواة الاحترام تجاه كل شخص مهما كان عرقه أو دينه الذي يعتنقه.

لسبب أو لآخر لا تحتفظ إلا باللحظات الصعبة بين الأديان وننسى لحظات الحياة المشتركة بينها. نبي الإسلام كان له تبادلات مثمرة مع مسيحي نجران (في اليمن الحالية) كما بين ذلك ميشال ريبير في كتاباته عن الاسلام. ألم يكن ذلك نوعاً من الحوار بين الاديان؟⁽²⁾

الشخصيات التاريخية والحوار

الحوار ما بين الأديان بالمعنى المعاصر للكلمة، بدأ منذ زمن بعيد، ويمكن أن نشير إلى اللقاء الذي جمع في بغداد سنة 823م بين

البطريرك تيموتي الأول (توفي 823م) رئيس كنيسة الشرق 780 و 823 بين وهارون الرشيد الخليفة العباسي. أو نذكر أيضا اللقاء بين البابا غريغوار السابع والسلطان الناصر سنة 1076م. اللقاءات كانت البدايات الأولى للحوار بين الديانتين. وفي 1965، أقر المجمع الكنيسي للفاتيكان الثاني بضرورة الحوار مع الأديان حيث جاء في الوثيقة: أن الكنيسة تنظر بتقدير للمسلمين الذين يعبدون الله الواحد، الحي، الرحيم والعظيم خالق السماوات والأرض والذي خاطب البشر.

في الواقع، عرفت العلاقات بين الإسلام والديانات الأخرى قمة ازدهارها في الأندلس في العهد الذهبي للإسلام. وهي فترة ازدهار في التاريخ اليهودي أيضا كما كتب الياهو أشتور. في الحقيقة، حدث لقاء استثنائي بين الإسلام واليهودية، سمح جو التسامح الذي كان سائدا بأن احتفظ اليهود بمجديتهم كما شاركوا بصفة فاعلة في المجتمع. شارك اليهود مع المسلمين بكل حماس واخلص كشعراء، موسيقيين، فلاسفة، أطباء وعلماء وعملوا جميعا لصالح خير الإنسان عامة.

عمل المسلمون في الأندلس على ترجمة الكتب اليونانية: أرسطو، أفلاطون أساسا، وطوروا بطريقتهم الفلسفة العربية. هؤلاء الفلاسفة لعبوا دورا محمدا في المقاربة الدينية ونذكر منهم الكندي (ت873) والفارابي (ت950) وابن رشد (ت1198) وهم قد واجهوا الدين والعقل. بالنسبة إليهم حقائق العقل لا تناقض حقائق النقل فالحقيقة هي "واحدة" مهما كان مصدرها عربيا أم غير عربي.

الفلاسفة اليهود كان لهم اثر في تلك المرحلة المزدهرة في الاندلس، نذكر على سبيل المثال داود المقمص، سعدية جاوون، ابراهيم ابن داود وخاصة الفيلسوف والطبيب موسى ابن ميمون القرطبي (ت1204)

كانت الحوارات بين مختلف الفلاسفة مثمرة. هكذا عرف الحوار ما بين الديني بين ابن رشد وابن ميمون مستوى من الرقي حتى أصبح كل فيلسوف يشيد ويحلل دين الفيلسوف الآخر. لقد اعتبارا هذا شكلا ساميا للتوحيد : إبراهيم كان أبا مشتركا" للديانتين التوأمين".

كتب ابن ميمون عن ابن رشد وعن الديانة وعن الكتب السماوية "نحن متفقان حول علاقة العقل بالنقل: إنهما تجليان مختلفان لحقيقة إلهية واحدة. فليس هناك تناقض بينهما إلا إذا عند أصحاب القراءة الحرفية للنصوص الذين يجهلون مدلولاتها الخالدة" (دلالة الحائرين). الكل يعرف أن ابن رشد وابن ميمون كان لهم إسهامات كبيرة في العلوم وبخاصة في الطب. الملك الاسباني

ألفونسو العاشر كان قد طلب ترجمة لاتينية للقران وللتلموذ. كان اليهود والمسلمين يذهبون لنفس المدارس.

وأخيرا، هذه الأندلس هي الأندلس التي عاش فيها الصوفي الشهير محي الدين ابن عربي (توفي 1240) المعروف بالشيخ الأكبر وبابن أفلاطون صاحب مذهب وحدة الوجود الذي ترك للإنسانية تراثا ضخما متكونا من 846 مؤلفا. كانت رسالته الأساسية هي الاعتراف والتسامح والمحبة التي عبرت عنها الأبيات الشعرية التالية في ديوانه ترجمان الأشواق:

لقد صار قلبي قابلا كل صورة

فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف

وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه

فالحب ديني وإيماني.

هكذا، نجحت الأندلس بفضل حرص الجميع على ضمان حياة هادئة وغنية لسكانها كما أخبرنا المؤرخون. كان الناس مختلفين وقرابين من بعضهم في نفس الوقت، وكان الجميع يكمل الجميع.

في القرن التاسع عشر، لدينا مثال آخر عن الوفاق بين الأديان في مرحلة مختلفة وفي ظروف مغايرة. تجسد الوفاق بين الأديان في شخصية الأمير عبد القادر (1808-1883) الذي عرف عنه أنه قدم حماية للمسيحيين المارونيين من الاعتداءات عليهم في دمشق عام 1880. وبالرغم من أنه حارب الجيش الفرنسي المحتل للجزائر إلا أنه لم يمنعه ذلك من أن تكون له علاقات ود واحترام مع ممثلي الكنيسة الكاثوليكية حيث صرح انه "لو أصغى إلي المسلمون والنصارى لعرفت الخلاف بينهم، ولصاروا إخوانا ظاهرا وباطنا ولكن لا يصغون إلي" (الامير في كتابه ذكرى العاقل وتنبيه الغافل).

بعد احتلال الزمالة بمعسكر الجزائرية من قبل الجيش الفرنسي ودخوله السجن بمدينة بو وامبواز، استقر الأمير في دمشق حيث ضريح شيخه محي الدين ابن عربي. وفي دمشق سيعطي الامير معنى لكفاحه من أجل الانسانية .وهو الذي كان سباقا واستخدم مفهوم "حقوق الانسانية". لقد قدم الامير حمايته للجالية المسيحية خلال احداث جويلية 1860. لقد أنقذ 12 ألف مسيحيا مارونيا من هجومات وشيكة كان وراءها مسلمون غاضبون حيث تدخل قائلا "الأديان وفي مقدمتها الإسلام هي شريفة ومقدسة وليست خنجرا للجهالة أو مكانا للضلالة أو الاصوات الناعقة.. أحذركم من أن تسيروا في خطى الشيطان والجهالة" (ترجمة من النص بالفرنسية) وهو منقول من تقارير قنصل فرنسا في دمشق الذي يوضح أن

الأمير قد جمع جيشه لانقاذ المسيحيين⁽³⁾. هذا الموقف من الأمير كان له صدى معتبرا في جميع أنحاء العالم. الكثير من رؤساء الدول أعربوا عن اعترافهم له بجهوده. هكذا ونتيجة لهذا الموقف النبيل كرمه البابا بمنحه وسام Pie IX ووسام الشرف الكبير. وبعد تلقيه الرسائل العديدة للشكر والاعتراف كتب الأمير "ما فعلنا من خير مع المسيحيين قمنا به وفاءا للإسلام واحتراما لمبادئ الإنسانية. لان العباد كلهم عيال الله وأحبهم لله أنفعهم لعياله. كل الشرائع التي جاء بها الأنبياء منذ آدم وإلى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام قامت على مبدئين: تعظيم الله العلي القدير والرأفة بخلقه. وماعدا هذين المبدئين ليس هناك إلا مسائل خلافية غير كبيرة الأهمية. والشرعية المحمدية من بين كل الشرائع اوصت بالرحمة والرأفة والحرص على التعاون وتجنب الفتن" (ترجمة من النص الفرنسي).

يستخدم الأمير عبد القادر صيغة "نحن" للإشارة إلى المسيحيين والمسلمين: فهو يخشى الفتنة بين البشر. وفي كتابه المشهور "المواقف" يطرح لنا رؤية عميقة لما يجمع الأمم المختلفة حيث جاء في هذا الكتاب "ربنا هو رب جميع الأمم المخالفة لنا وهو رب واحد للجميع" (ترجمة من الفرنسية).

ماهي العبرة من كل هذا؟ الرب واحد وكل الخلائق تعود إليه. ومهما تعددت طرق الوصول إليه، فان الغاية واحدة: تعظيمه. الحوار مابين الأديان، واحترام كل البشر، وخدمة جميع الإنسانية هي أفضل الطرق لتعظيمه.

وفي القرن العشرين، وخلال الحرب العالمية الثانية، قام إمام مسجد باريس سي قدور بن غريبط بتحويل المسجد إلى مكان لمقاومة الاحتلال النازي ومكانا آمنا لإنقاذ وإيواء اليهود. وكان للمسجد فرعه من منظمة Les Francs-tireurs partisans (FTP) قام أعضاء هذه المنظمة خلال هذه الفترة بإنقاذ وإسعاف الجرحى. وقام مسجد باريس بمساعدة العائلات اليهودية التي كانت تنتظر الأوراق الإدارية من سلطات الاحتلال النازي لترحيلهم إلى الجنوب الفرنسي أو إلى جنوب المتوسط في المغرب العربي. ولقد أحصى الدكتور أسولين 1600 بطاقة غذائية منحها لمسجد باريس اعطيت لليهود الذين وجدوا في المسجد ملجأ وحماية من الترحيل النازي إلى معسكرات الاعتقال.

وبالنظر لكل هذه الشواهد التي أوردناها من آيات قرآنية وأحاديث نبوية والتيلم نوردها وللشواهد التاريخية من أفعال شخصيات كبار في تاريخ الإسلام يمكن أن نؤكد أن الإسلام كان سباقا للحوار بين الأديان وأنه دعا دائما للإخوة والسلام وهي دعوة من صميم الإسلام.

1. André Malraux 1901 /1976
2. Michel Reeber est membre du GERI (Groupe d'études et de recherches islamologiques) de la faculté de théologie protestante de Strasbourg dont l'un des objectifs est la « promotion » du dialogue islamo-chrétien. Il est également chercheur associé au SDRE (Société, droit et religion en Europe), Université Robert-Schuman de Strasbourg et CNRS. Il a publié aux éditions Milan, dans la même collection, **Le Coran** (n° 211), 2002, **Les grandes religions dans le monde** (n° 109), 1998. Il a dirigé avec Guy Monnot et Christian Robin **Le Coran et la Bible : aux sources de l'islam**, Bayard, « Religions en dialogue », 2002.
3. Cf. . Bruno Etienne, Abdelkader, Paris Hachette, 2012

Bibliographie :

1. Coran (Le), traduit, édition Tawhid, Lyon, 2010
2. Mustapha CHERIF, L'Islam Tolérant ou Intolérant, préface de Jean-Luc NANCY, édition Odile Jacob, Paris 2006
3. Mustapha CHERIF, L'Islam et l'Occident, rencontre avec Jacques Derrida, édition Odile Jacob, Paris 2006
4. Tabari Histoire des Prophètes et des Rois de la création à la dernière révélation, traduit par Hermann Zotenberg, édition La Ruche ,2006
5. Bouazza LAATIK, l'exégèse de Tabari et d'Al-Qurtubi, étude comparative du Tafsir coranique en Orient et Occident Musulman IX et XIII siècle, Edilivre 2011

